المصطلحات اللسانية النصية في التراث العربي القديم

"منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني أنموذجا

Terminologie du vieil Arabe le livre de " Hazim Elkartajani

أمينة بن عيجة[1]، نورة بقرني[2]

1-جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2 (الجزائر)

2-جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر 2 (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2019/07/06 تاريخ القبول: 2020/06/12 تاريخ النشر :2020/07/29

ملخص: يهدف هذا المقال إلى الكشف عن بعض ما هو موجود في التراث العربي، متخذا كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني (توفي 684هـ) مدونة له، يحاول من خلالها استقراء بعض المصطلحات العربية القديمة التي حملت مفاهيم لسانية نصية هذا من جهة، ومن جهة أخرى يحاول استنتاج طريقة القرطاجني في تحليل النصوص الشعرية تحليلا لسانيا يتقاطع في الكثير من المواضع مع ما جاء به التحليل اللساني النصي الحديث.

الكلمات المفتاحية: النقد، البلاغة، التراث، النص، الجملة، لسانيات النص، الانسجام.

Résumé: Le but de cet article est de révéler un peu de ce qu'est dans l'héritage arabe, prenant le livre de " Hazim Elkartajani " (M.684m) un blog, par lequel il essaye d'extrapoler un peu de terminologie du vieil Arabe qui a porté les concepts linguaux textuels d'une part et d'autre part, essaye à la conclusion la façon(le chemin) dans l'analyse des textes poétiques a possédé une analyse linguistique Croisez dans beaucoup d'emplacements avec l'analyse linguistique textuelle moderne. **Mots clés**: le Critique,la Rhétorique, le patrimoine, le texte, linguistique textuelle ,la cohérence.

المؤلف المرسل: أمينة بن عيجة[1]، **الإيميل:**

المصطلحات اللسانية النصية في التراث العربي القديم "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني أنموذجا

مقدمة:

تحتل الدراسات اللسانية النصية مركزا مهمّا في الأبحاث اللغوية الحديثة، خاصة بعد تزايد البحث في مجال لسانيات النص، التي اعتمدت فيه على النص واتخذته وحدة للمعالجة وهدفا.وقد توجه التحليل اللغوي النصي عند الغربيين توجها جديدا – بعدما كانت دراساتهم تنطلق من الجملة اعتبارا أنها أكبر وحدة لغوية–إذ تجاوز مستوى الجملة إلى مستوى النص، معتمدا في ذلك على الترابط الذي يحكم أجزاء النص، وهنا اعتبرت الجملة ما هي إلا وحدة لغوية تساهم في تكوين النص .

وكان للعلماء العرب إشارات واهتمامات بالنص وهذا يؤكّد مدى وعيهم بوجود مفاهيم لسانية تهتم بالنصوص، إلا أن المصطلحات التي استعملوها تختلف عن التي تستعمل في الدراسات اللسانية الحديثة اليوم. ونجد من هؤلاء علماء البلاغة الذين اهتموا بالكثير من المفاهيم التي تتخذ النص أكبر وحدة للتحليل غير أنهم استعملوا مصطلحات مختلفة عن المصطلحات المتداولة في التحليل اللساني الحديث. وهذا يعني أن تراثنا العربي القديم يحمل الكثير من بوادر النظريات اللسانية والبلاغية الحديثة.

ويعتبر حازم القرطاجني)*ت 684هـ) من العلماء الذين كان لهم باع طويل في مختلف جوانب أو فنون اللغة العربية مهتما بشكل خاص بالشعر والعروض والإيقاع ...الخ، وقد استعمل مصطلحات عديدة في كتابه **"منهاج البلغاء وسراج الأدباء"**؛ منها مصطلحات قديمة كانت متداولة وموجودة في كتب سابقة له، ومصطلحات مبتكرة وضعها حازم نفسه.والإشكالية التي نطرحها في هذا المقام هي : كيف تناول حازم هذه المفاهيم؟ وهل اعتبر النص أكبر وحدة لسانية أثناء تحليلاته ؟، وكيف حلّلها وربطها بالنظرة الكلية للنص؟.

قدم القرطاجني في كتابه القيّم أربعة مباحث وهي (لخلف، 2006م، صفحة 112):

- مبحث اللفظ : وهو يمثل المستوى المعجمي.
- مبحث المعنى : وهو يمثل المستوى الدلالي.
- مبحث النظم : وهو يمثل المستوى التركيبي.
- مبحث الأسلوب : وهو يمثل المستوى النصي.

وتدخل المستويات الثلاثة الأولى في إطار الجملة أما المستوى الأخير فيمثل مستوى النص، وهذا يؤكد وعي القرطاجني بالمستوى النصي من خلال بناء مباحثه وما طرحه فيها بشكل متدرج من اللفظ إلى الأسلوب.

نظر حازم القرطاجني إلى النص نظرة كلية، واهتم باللفظ والنظم والأسلوب معا، فقد قال في حسن التركيب والتأليف: « واعلم أن منزلة حسن المحاكى به وإحكام تأليفه من القول المحاكى به ومن المحاكاة بمنزلة عتاقة الأصباغ، وحسن تأليف بعضها إلى بعض، وتناسب أوضاعها من الصور التي يمثلها الصانع. » (الحسن، 2008م، صفحة 113).

وكما هو معروف عند جميع الأدباء تعريف القرطاجني للشعر بقوله : « الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه، والهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها، أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه، أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك.» (الحسن، 2008م، صفحة 71). ويلاحظ – من خلال هذا التعريف– أن حازم أعطى أهمية لطرفي النظم (الناظم والمتلقي)، وبيّن أن الطرف الثاني (المتلقي) هو الذي يتأثر بالشعر فيستحسنه أو يستقبحه وفقا للمعاني التي عبّر عنها الطرف الأول (الناظم أو الشاعر) والألفاظ التي استعملها من أجل ذلك. ويقودنا هذا التعريف أيضا إلى تحليل بعض المفاهيم اللسانية فيه ؛ فالمتلقي في اللسانيات النصية وفي معيار الانسجام على وجه الخصوص يُعتبر مكمّلا وصانعا للانسجام في النص– بنوعيه الشعري أو النثري– وكما ذكرنا

سابقا فالقرطاجني قد أعطى أولوية للمتلقي من خلال فهمه للشعر الذي يُلقى عليه والذي بدوره يحكم على جودته أو رداءته.

أما في العبارة الموجودة في التعريف: ما قصد تحبيبه ....وما قصد تكريهه... فهي تتعلق بالناظم أو المنتج الذي من واجبه إيصال مقصده إلى المتلقي بواسطة استعمال اللغة مع حسن استعمال ألفاظها، وهنا يظهر مفهوم القصدية**. ونجده في مواقف كثيرة يركز على هذا المفهوم في كتابه المنهاج، ويقول في طرق الشعر التي حدّدها: «إما أن تكون مفرحة محضة يذكر فيها لقاء الأحبة في حال وجوده واجتلاء الروض والماء وما ناسبهما والتنغم بمواطن السرور ومجالس الأنس, وإما أن تكون (مفجعة) يذكر فيها التفرق والتوحش وما ناسب ذلك وبالجملة أضداد المعاني المفرحة المنعمة, وإما أن تذكر فيها مستطابات قد انصرمت فيلتذ لتخيلها ويتألم لفقدها فتكون طريقة شاجية. واستقصاء القول في هذا يجيء في القسم الرابع ولعلي أن أدرج أيضاً في هذا القسم فضل بيان لذلك.». (الحسن، 2008م، الصفحات 21–22) ويبدو أن القرطاجني قد حدد هذه الطرق اعتماد على قصدية الناظم أو المنتج ؛ فالنفس البشرية تتأثر بمواقف الفرح والحزن، ولابد للناظم أن يحدد مقاصده في نصه الشعري معتمدا في ذلك للتعبير عنها على اللغة وحسن اختيار الألفاظ وتركيبها لتؤثر على نفوس المتلقين.

ويذكر في مقام آخر أمهات الطرق الشعرية الأربعة وهي: « التهاني وما معها والتعازي وما معها، والمدائح وما معها، والهاجي وما معها، وأن كل ذلك راجع إلى ما الباعث عليه الارتياح، وإلى ما الباعث عليه الاكتراث وإلى ما الباعث عليه الارتياح والاكتراث معا.». (الحسن، 2008م، صفحة 308) وهذه الطرق هي التي تحدد مقاصد الناظم بغية التأثير في المتلقي.

لم يتوقف حازم عند نقده للقصيدة على البيت الواحد وإنما نظر إلى القصيدة نظرة كلية، وأشار إلى العلاقة بين مطلع القصيدة ونهايتها. وهذا ما يسمى في الدراسات اللسانية الحديثة بالانسجام، وهو نفس المفهوم الذي تناوله باحثون عرب قدماء واصطلحوا عليه بـ"المناسبة" مهتمين على وجه الخصوص بالنص القرآني، و« إذا كان البلاغيون قد أسهموا إسهاما واضحا في الكشف عن كثير من الأدوات والوسائل التي يتحقق بها اتساق النص وانسجامه فإن المفسرين قد كشفوا عما في كتاب الله عز وجل من اتساق وانسجام.» (البطاشي، 2009م، صفحة 39)، كما فعل الزركشي في كتابه **"البرهان في علوم القرآن"**، والسيوطي في كتابيه **" تناسق الدرر في تناسب السور"** و**"معترك الأقران في إعجاز القرآن..."**

اهتم القرطاجني بالمناسبة أو كما اصطلح عليها بالتناسب، وأشار إليه في الكثير من المواضع في كتابه وهو عنده: « قانون أساسي أو مبدأ أساسي لابد منه في جميع أجزاء القول الشعري. حيث لابد من تناسب الحروف، وتناسب اللفظ للمعنى، وتناسب العبارات مع بعضها، كما لابد من التناسب والتكميل في المحاكاة والتناسب بين الأغراض والمقاصد و الأوزان من أجل تحقيق أقصى غايات التجويد الفني للقول الشعري. ». (الوهيبي، 2002م، الصفحات 310-311)

لذا فهو يعرّف علم البلاغة أو كما يسميه العلم الكلي مركزا على مبدأ التناسب إذ يقول: «معرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع....» (الحسن، 2008م، صفحة 226)

وقصد حازم بالمناسبة مناسبة المعاني لسياق القول (الحال التي فيها القول) (العليم، 2019م، صفحة 99) لما تحققه المناسبة من أثر تخييلي« فأحسن مواقع التخييل أن يناط بالمعاني المناسبة للغرض الذي فيه القول متخيل الأمور السارة في التهاني, والأمور المفجعة

في المراثي. فإن مناسبة المعنى للحال التي فيها القول وشدة التباسه بها يعاون التخييل على ما يراد من تأثر النفس لمقتضاه. » (الحسن، 2008م، صفحة 90).

وتعد المناسبة –عنده– معيارا أساسيا في تشكيل آرائه ونظراته النقدية ؛ حيث جعل تحققها أساسا إجرائيا لابد أن يبتغيه الشاعر ولا يتخلى عنه الناقد، ويقول في هذا الصدد: «إذا كان البيت الثاني تتمة الفصل الأول. فأما إذا كان الفصل الأول أكثر من بيتين فإنهم يوجهون العناية إلى تحسين نهاية الفصل. وكلما قرب ذلك إلى المبدأ فكان ثانيا أو ثالثا كان أحسن مثل قول أبي تمام الطائي – رحمه الله–

أيها البرق بت بأعلى البراق ... واغدُ فيها بوابل غيداق

وتعلم بأنه ما لأنوا ... ئك إن لم تروها من خلاق

دِمَنُ طالما التقت أدمع المز ... ن عليها وأدمع العشاق

وإذا لم يكن البيت الثاني مناسبا للأول في حسنه غض ذلك من بهاء المبدأ وحسن الطليعة، وخصوصا إذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب، وذلك نحو قول أبي الطيب المتنبي :

أتراها لكثرة العشاق ... تحسب الدمع خلقة في المآقي

كيف ترثي التي رأت كل جفن ... رآها غير جفنها غير راق

وتحسين البيت التالي لبيت التخلص إلى المدح يجري من بيت التخلص مجرى تحسين البيت الثاني من البيت الأول في أن إتباع تحسين أحدهما بتحسين الآخر أكيد. » (الحسن، 2008م، الصفحات 277–278).

إذن فالمناسبة عنده يمكن وصفها « مبدأ تنظيميا ؛ وذلك أنه ينظم بنية النص اللفظية والمعنوية ؛ أي أن المناسبة هنا تعني الربط الشكلي والمضموني جميعا. ». (العليم، 2019م، صفحة 100)

استعمل حازم مصطلحا آخر هو التناصر الذي يعد عنصرا من عناصر التماسك و« مظهرا من مظاهر الارتباط المضموني والشكلي بين وحدات الفصل الواحد، لاسيما في طليعته. ويمكن لمعيار المناسبة وفكرة التناصر معا أن يمثلا منظورا لغويا إلى بنية النص بوصفه كلا دلاليا متفاعلا متبادل التأثير بالإيجاب والسلب. إذا كان حسن الجزء معتدا به بحسن غيره، فإن ذلك يعني أن الحسن في المبدأ ليس صفة قبلية، ولكنها صفة استعمال يكتسبها الجزء في محيط الكل. وسيعني هذا بالضرورة أن النص ليس مجموع أجزائه، ولكنه حصيلة التفاعلات بين تلك الأجزاء.». (العبد، 2005م، الصفحات 138-139)

بيّن القرطاجني أن الكلام الشعري لا يكون حسن النظم ما لم تتوفر فيه عدة شروط أو قوى كما اصطلح عليها- وقد حدد عشرة منها- **فأولها**«وهي عشر: القوة على التشبيه فيما لا يجري على السجية ولا يصدر عن قريحة بما يجري على السجية ويصدر عن قريحة.

الثانية: القوة على تصور كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعاني الواقعة في تلك المقاصد ليتوصل بهذا إلى اختيار ما يجب لها من القوافي ولبناء فصول القصائد على ما يجب نحو ما أشرنا وما نشير إليه.

الثالثة: القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعاني والأبيات والفصول من بغض؛ بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمتها إن كانت محتاجة إلى شيء معين في ذلك.

الرابعة: القوة على تخيل المعاني بالشعور بها واجتلابها من جميع جهاتها.

الخامسة: القوة على ملاحظة الوجوه التي بها يقع التناسب بين المعاني وإيقاع تلك النسب بينها.

السادسة: القوة على التهدي إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعاني.

السابعة: القوة على التحيل في تسيير تلك العبارات متزنة وبناء مباديها على نهاياتها ونهاياتها على مباديها.

الثامنة: القوة على الالتفات من حيز إلى حيز والخروج منه إليه والتوصل به إليه.

التاسعة: القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض والأبيات بعضها ببعض وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التي لا تجد النفوس عنها نبوة.

العاشرة: القوة المائزة حسن الكلام من قبيحة بالنظر إلى نفس الكلام وبالنسبة إلى الموضع الموقع فيه الكلام. فقد يتفق للشاعر أن ينظم بيتين قافيتهما واحدة فيكون أحدهما أحسن في نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلى المحل الذي يوقعه فيه من جهة لفظ أو معنى أو نظام أو أسلوب. ففي مثل هذا الموضع يصير المرجوح راجحا والمفضول فاضلا. وكثير ممن ليست له هذه القوة يسقط أحسن مما يثبت بالنسبة إلى المحل.». (الحسن، 2008م، صفحة 178)

جعل حازم هذه الشروط السابقة متعلقة بالمتلقي حتى يتأثر بالكلام الشعري ويتفاعل معه، وهذا يدل على أنه كان على وعي بدوره في الحكم على النص من خلال المقاصد التي يرسلها إليه المنتج عن طريق النص الشعري.

وقد ركز حازم وتوسّع في مفهوم المحاكاة وأعطى أمثلة عديدة لها، وتعد المحاكاة في النص الشعري من دلالات انسجامه، فـ«لا يخلو الشيء من أن يحاكى بأوصاف له شهيرة أو صفات خاملة أو بمجموعها. ولا تخلو من أن تقع التخاييل في جميع أجزاء الشيء أو في

بعضها. والمخيل الذي تقع التخاييل في بعض أجزائه لا يخلو أن تقع في طرف واحد منه, أو في كلا طرفيه, أو فيهما معا وما بينهما. وأحسن التخاييل ما اشتهرت الأوصاف فيه وعمت.». (الحسن، 2008م، صفحة 107)

و«المحاكاة التامة في الوصف هي استقصاء الأجزاء التي بموالاتها يكمل تخييل الشيء الموصوف. وفي الحكمة استقصاء أركان العبارة عن جملة أجزاء المعنى الذي جعلها مثالا لكيفيات مجاري الأمور والأحوال وما تستمر عليه أمور الأزمنة والدهور. وفي التاريخ استقصاء أجزاء الخبر المحاكى وموالاتها على حد ما انتظمت عليه حال وقوعها, كقول الأعشى :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار
إذ سامه خطتي خسف, فقال له: ... قل ما شاء, فإني سامع حار
فقال: غدر وثكل أنت بينــهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل, ثم قـال لـه ... اقتل أسيرك, إني مانع جاري

فهذه المحاكاة تامة، ولو أخلّ بذكر بعض أجزاء هذه الحكاية لكانت ناقصة، ولو لم يورد ذكرها إلا إجمالا لم تكن محاكاة ولكن إحالة محضة» (الحسن، 2008م، الصفحات 92-93).كما أن المحاكاة لها تأثير في نفس المتلقي ؛ يتزايد كلما ازدادت درجة الإبداع عند الشاعر، وكلما كان للنفس مقبولية له، وخاصة إذا تعلق الأمر بما يهواه القلب .

استعمل القرطاجني مصطلح **الأغراض الجمهورية** (مهدي، 2011م) في الشعر و «يراد –به– من استثارة الأفعال الجمهورية أو كفكفتها بالإقناعات والتخييل المستعملة فيه نحو توفر دواعي العرب إلى ذلك لكانت هذه الأمة أجدر أمة أن تحوز قصبات السبق في الفصاحة وأن تستولي على الأمر الأقصى في ذلك. وأفصح قبائل العرب من شارف هذه الحال التي وصفنا أو قاربها.» (الحسن، 2008م، صفحة 108)

وتميل الخطابة كما هو معلوم إلى تحقيق غاية الإقناع ، وتشترك والشعرَ في غرض واحد ألا وهو التأثير في نفوس المتلقين، وفي الكثير من الأحيان يستعمل الشاعر الإقناع في إبداعه ليكون التأثير غاية في البراعة، كما أن الخطيب غالبا ما يستشهد بأبيات من الشعر للغرض نفسه. ويرى حازم أن معاني الإقناع المستعملة في الشعر تكون غالبا معان جمهورية. وأن بعض تلك المعاني حتى وإن لم يعرفها الجمهور إلا أنها تصلح للشعر كالأخبار القديمة والتاريخية ومنها ما لا يصلح كالمعاني المستمدة من العلوم لأنها تكون مجهولة عند الجمهور. ويقول في هذا المقام: « وقد تُعضد هذه الأشياء باستدلالات خطبية محضة أو موجود فيها شروط الشعر والخطابة معا يكون المحاكاة توجد فيها مع الإقناع؛ وما كان بهذه الصفة فهو أفضل موقعا في الشعر، والصنف الآخر أيضاً قد يقع في الشعر ولا يقدح ذلك فيه لأن صناعة الشعر لها أن تستعمل شيئا من الإقناع كما أن صناعة الخطابة لها أن تستعمل شيئا يسيرا من المتخيلات». (الحسن، 2008م، صفحة 313)

ويقول في مقام آخر: « صناعة الشعر تستعمل يسيرا من الأقوال الخطابية كما أن الخطابة تستعمل يسيرا من الأقوال الشعرية لتعتضد المحاكاة في هذه بالإقناع والإقناع في تلك بالمحاكاة.». (الحسن، 2008م، صفحة 264) ولكن لابد ألا يطغى جانب الإقناع في القصيدة الشعرية كم لا يجب ألا تطغى الأقوال الشعرية في الخطابة، لتبقى الشعرية هي الوظيفة الأساسية في النص الشعري والإقناع هو الوظيفة الأساسية في النص النثري .

وقد استعمل مفاهيم أخرى منها (العبد، 2005م، صفحة 132): الاقتران، والتناسب***، والالتئام، وهذه المفاهيم تقترب من مفهوم الانسجام كما أنها تساهم في إبراز مفهوم بنية النص عنده.

استعمل القرطاجني الاقتران وقصد به اقتران المعاني ببعضها، وجعل له الأنواع –وقد سماها "جهات التعلق"– التالية :(العبد، 2005م، صفحة 133)

- اقتران التماثل : وقصد به التناظر بين موقع المعنى في حيزين مختلفين.
- اقتران المناسبة : أي اقتران المعنى بما يناسبه من المعاني.
- اقتران المطابقة أو المقابلة : أي اقتران المعنى بضده.
- اقتران المخالفة : بمعنى اقتران الشيء بما يناسب ضده.
- اقتران بين الحقيقة والمجاز : أي اقتران الشيء بما يشبهه بأن يستعار اسم أحدهما للآخر.

قدم القرطاجني وجهة نظره في النص وإنتاجه، وقد لخصها محمد العبد في القوانين التالية: (العبد، 2005م، الصفحات 136–143)

1– الابتداء: وقد قصد به القرطاجني تلك المناسبة التي تظهر بين اللغة المستخدمة ومقصد المتكلم، ويقول في أهمية ذلك :«وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم في جميع جهاته. فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد. فإن طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر.ومما تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالا ويثير لها حالا من تعجيب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه[...] وفي الكلام ما له صورة يصير بها لائقا أن يكون رأس كلام ومفتتح قول، ومنه ما لا يليق بالمبادئ ولا يكون له هيأة تصلح لها.» (الحسن، 2008م، صفحة 303)

2– التخلص: وقصد به خروج الكلام من غرض إلى آخر عن طريق التدرج، وإذا كان الخروج من غير تدرّج سمّاه الاستطراد.ويرى أن وظيفة التخلص تلخص فيما يحدثه من التقاء بين الأغراض مما يساهم في تلقي الكلام بشكل إيجابي أكثر. ومن هنا فإن التدرج يعد

العنصر الأساسي للتخلص عند حازم، وفكرة التدرج عنده يبينها في قوله: «فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض (أي التدرج) أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما، فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام؛ فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما وجدت النفس في طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه، كانت بمنزلة المستمر على طريق سهل، بينا هو يسير فيه عفوا إذ تعرض له في طريقه ما ينقله من سهولة المسلك إلى حزونته ومن لينه إلى خشونته. وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المديح بعد النسيب دفعة من غير توطئة لذلك، فإنها تستصعبه ولا تستسهله، وتجد نبوة ما في انتقالها إليها من غير احتيال وتلطف في ما يجمع بين حاشيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواء والتئام». (الحسن، 2008م، صفحة 288)

3- الانتهاء: ويقصد به الخاتمة وقد وضع لها شروطا:

- لابد أن تحتوي على أحسن ما ورد من الكلام في حشو القصيدة.
- أن يكون مقصودها غير مناف لما قصدت جذب النفس إليه والعكس صحيح. أي لابد من أن يرتبط الكلام بمقصده ولا ينافيه.
- أن يذكر فيها ما حسن من معنى الكلام، بمعنى أن يكون النظم حسنا لا قبيحا.

وتعد هذه القوانين مراحل إنتاج القصيدة الشعرية التي وضعها القرطاجني التي لا تختلف عن مبادئ إنتاج النص التي أسستها الدراسات اللسانية الحديثة اليوم، والتي تتلخص في ثلاثة مصطلحات " مقدمة، عرض، خاتمة". ويمكن توضيح ما سبق في الشكل التالي:

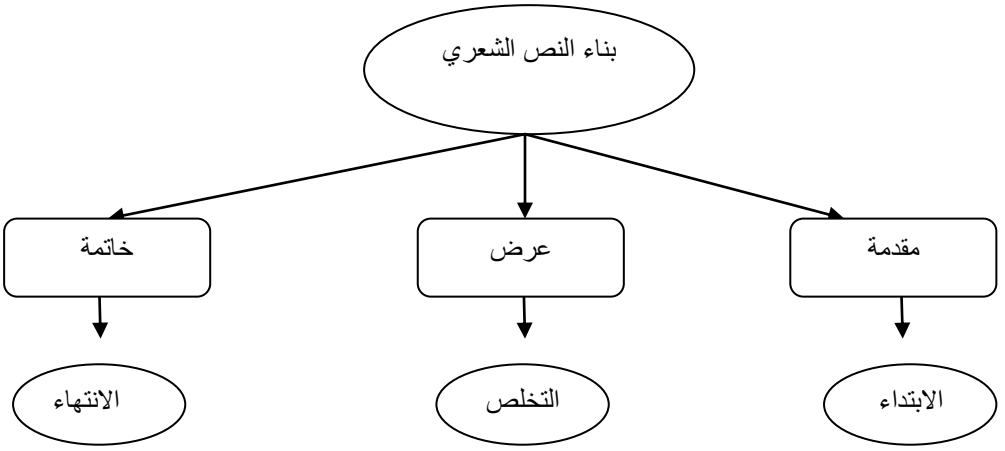

ويمكن إجمال هذه الشروط في ما يلي : « ينبغي أن ترتبط الخاتمة بما قصد إليه المتكلم في النص، وألا يكون تأثيرها في ما قبلها من حيث المعنى تأثيرا سلبيا. » (العبد، 2005م، صفحة 144)

وهناك من يرى أن القرطاجني (لخلف، 2006م، صفحة 113) له السبق في الاهتمام بانسجام النص الشعري وتلاحمه، لأنه اهتم بالعلاقات والروابط بين الجمل وكذا بالانسجام الصوتي وربطه بمستوى النص كله.

وقد استعمل القرطاجني طريقة تحليل للنصوص الشعرية تقترب إلى حد ما من الطريقة المتداولة في التحليل النصي الحديث، إذ قدم صورة حول تقسيم الشعراء لقصائدهم إلى فصول وكل فصل يحقق غرضا معينا، والمقصود بالفصل عنده « بيتان في غالب الأحيان إلى حدود أربعة أبيات تتضافر لأجل إيصال معنى معين». (خطابي، 2006م ، صفحة 150)

وأجود هذه القصائد عنده ما كان بين فصولها علاقات تصل بعضها ببعض – حسب رأيه– وأوضح أهمية هذا الربط بقوله : « يكون اقتران صنعة رأس الفصل وصنعة عجزه نحوا من اقتران الغرة بالتحجيل في الفرس (...)،وإذا اتجه أن يكون الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكدا لمعنى المتبوع ومنتسبا إليه، وكان

ذلك أشد تأثيرا في النفوس وأعون على ما يراد من تحسين موقع الكلام منها». (الحسن، 2008م، صفحة 268)

وقدّم مثالا على ذلك قول المتنبي :(الطيب، 1983م، صفحة 466)

أَغَالِبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغْلَبُ وأعْجَبُ من ذَا الهَجْرِ، والوَصْلُ أعْجَبُ.

يقول في تعليقه على هذا المثال : « فضمن هذا البيت من الفصل تعجبا من الهجر الذي لا يعقبه وصل، ثم أكّد التعجيب في البيت الثاني الذي هو تتمة الفصل الأول... ثم افتتح الفصل الثاني بالتعجب من وشك بينه وسرعة سيره فقال:

ولله سَيْرِي مَا أقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شرقيّ الحَدَالَى وغُرّبُ.

فكان هذا الاستفتاح مناسبا للبيتين المتقدمين من جهة التعجب وذكر الرحيل.. » (الطيب، 1983م، صفحة 269)

اعتنى حازم بمطلع القصيدة ونهايتها (العليم، 2019م، صفحة 103) وتعدى اهتمامه من مجرد التناسب بين مطلع القصيدة وموضوعها إلى وجوب التناسب والترابط بين شتى مكوناتها، فقد قارب بين بناء القصيدة وتركيبها وبين تأليف الكلام فكان يفكك عناصرهما حتى يصل إلى أصغر وحدة مؤكدا أهميتها ودورها في البناء، إذ يقول: «اعلم أن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف، والقصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ. فكما أن الحروف إذا حسنت حسنت الفصول المؤلفة منها إذا رتبت على ما يجب ووضع بعضها من بعض على ما ينبغي كما أن ذلك في الكلم المفردة كذلك. وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان كما يحسن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحسان إذا كان

تأليفها منها على ما يجب. وكما أن الكلم لها اعتباران: اعتبار راجع إلى مادتها وذاتها، واعتبار بالنسبة إلى المعنى الذي تدل عليه، كذلك الفصول تعتبر في أنفسها وما يتعلق بهيآتها ووضعها، وتعتبر بحسب الجهات التي تضمنت الفصول الأوصاف المتعلقة بها». (الحسن، 2008م، صفحة 287).

ومن بين العلاقات التي ذكرها القرطاجني والتي تساهم في تماسك الفصول علاقة الجزء والكل، يقول في هذا الصدد : « ومن القصائد ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمّنها معاني جزئية تكون مفهوماتها شخصية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تتضمن المعاني الكلية التي مفهوماتها جنسية أو نوعية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية.» (الحسن، 2008م، صفحة 266). ويفهم من هذا القول أن القصائد تنقسم إلى ثلاثة أقسام:قصائد تتضمن معاني جزئية، وقصائد تتضمن معاني كلية، وقصائد تكون بين المعاني الجزئية والكلية.

وهذا يعني أن كلام حازم القرطاجني يعد « في صميم العلاقات التي تنتظم في النص، وهي علاقات قد لا تظهر في سطحه، وإنما تحتاج إلى قوة إدراك ونفوذ إلى النص من مسالك عدة». (خطابي، 2006م ، صفحة 157).

وقد اهتم القرطاجني بالفصول وبترتيبها لذا وضع لها قوانين تخضع لها لتضمن سلامة البناء النصي وترابطه: (العبد، 2005م، صفحة 145)

– القانون الأول: يتمثل في انتقاء جوهر الفصول ومدى جِدة موادها ؛ ويجب أن تكون متناسبة المسموعات والمفهومات حسنة الاطراد غير متخاذلة النسج غير متميز بعضها عن بعض التمييز الذي يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه. (الحسن، 2008م، صفحة 260)

– القانون الثاني: ويتمثل في ترتيب الفصول مع بعضها؛ يجب أن يقدم (الحسن، 2008م، صفحة 260) من الفصول ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود بالكلام. ويكون مع ذلك متأتيا فيه حسن العبارة اللائقة بالمبدأ. ويتلوه الأهم فالأهم إلى أن تتصور التفاتة

ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم. فهناك يترك القانون الأصلي في الترتيب.

– القانون الثالث: يتمثل في ترتيب ما يقع داخل الفصول ؛فيجب أن يبدأ منها بالمعنى المناسب لما قبله، وإن تأتي مع هذا أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل والذي له نصاب الشرف كان أبهى لورود الفصل على النفس، على أن كثيرا من الشعراء يؤخرون المعنى الأشرف ليكون خاتمة الفصل. فأما من يردف المحاكاة ويختمه بأشرف معاني الإقناع. وإلى هذا كان يذهب أبو الطيب المتنبي – رحمه الله – في كثير من كلامه.

– القانون الرابع: يتمثل في ما يجب تقديمه أو تأخيره في الفصول لتختتم به ؛ والتأليف في ذلك على أربعة أضرب.

1– ضرب متصل العبارة والغرض؛ حيث يكون بين آخر الفصل وأول الفصل الذي يليه علاقة من جهة الغرض وارتباط من جهة العلاقة.

2– وضرب متصل العبارة دون الغرض.

3– وضرب متصل الغرض دون العبارة. فهو الذي يكون أول الفصل فيه رأس كلام، ويكون لذلك الكلام علاقة بما قبله من جهة المعنى.

4– وضرب منفصل الغرض والعبارة ؛ هو الذي لا توصل فيه عبارة بعبارة ولا غرض بغرض مناسب له.

وقد توصل محمد العبد إلى أن قوانين حازم تتقارب ومصطلحي الاتساق والانسجام في اللسانيات النصية (Cohesion– Coherence) حيث يرى لهذه القوانين شروطا يجب توفرها حتى تتحقق، وتتلخص فيما يلي: (العبد، 2005م، صفحة 146)

- شروط الانسجام الكلي****: وقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين فصول القصيدة، وتقع هذه الشروط في القانون الأول والثاني. فمن أمثلة القانون الأول تناسب المفهومات بين الفصول كما تناولها القرطاجني، وحسن الاطراد بين الفصول أي التوالي المحكم للمفاهيم والأغراض الذي يصل الفصول ببعضها، ومن الثاني أن يقدم من الفصول ما للنفس به عناية علا حسب الغرض المقصود من الكلام.

- شروط الانسجام الجزئي: وقصد به ما يحقق الارتباط المفهومي بين أبيات الفصل الواحد، وتقع هذه الشروط في القانون الثالث. كتأليف بعض بيوت الفصل إلى بعض.

أما القانون الرابع فقد جعله حازم (العبد، 2005م، صفحة 149) في وصل بعض الفصول ببعضها أو حدوث الفصل فيها، مع مراعاة أنه تناوله في إطار النص المتسق والمنسجم في آن واحد.

وقد اعترف محمد العبد بسبق القرطاجني إلى تفصيل هذه العلاقات بقوله: « ولعل وضع حازم يده على بعض وجوه التعلق بين البيت والآخر من الفصل الواحد بداية جدولة العلاقات الدلالية التي سبق فيها المحدثين مثل نايدا. يحتفظ نايدا بحق الجدولة المتكاملة للعلاقات الدلالية بين المنطوقات، ويحتفظ حازم بحق السبق إلى كثير من تلك العلاقات. » (العليم، 2019م، صفحة 106)

لم يغفل حازم عن قضية السياق في النص الشعري بل اهتم بها وربط جهات الأقاويل الشعرية به وهي «ما يكون الكلام منوطا به من الأشياء المقصود وصفها أو الإخبار عنها. والجهات ضربان: ضرب يقع في الكلام مقصودا لنفسه. وهو ما كان له بالغرض المقول فيه علقة وله إليه انتساب بوجه يوجب ذكره. والصنف الثاني ما لم يكن له بالغرض علقة، ولكن له علقة ببعض الجهات المتعلقة بالغرض، فيذكر تابعا لما ذكر معتمدا على جهة إحالة أو محاكاة أو غير ذلك؛ وقد يكون له بالغرض علقة إلا أنه لم يذكر إلا من حيث ما هو تابع لغيره ومتعلق به.» (الحسن، 2008م، الصفحات 192-193). ومن خلال قوله السابق فإنه

قد حدد قسمين من السياق ؛ السياق اللغوي (ضرب يقع في الكلام مقصودا لنفسه) والسياق الخارجي(ما لم يكن له بالغرض علقة، ولكن له علقة ببعض الجهات المتعلقة بالغرض).

والسياق عند العلماء العرب «يشتمل على عناصر دلالية تستفاد من المقال ومن المقام جميعا ويمكن تقسيمه تبعا لذلك إلى:

أ- السياق اللغوي وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النص.

ب- السياق الخارجي وهو المستفاد من العناصر الغير اللغوية التي تصاحب النص.» (البركاوي، 1991م، صفحة 30)

أعطى القرطاحني مكانة مهمة للمتلقي واعتماد على حكمه على النص الشعري بالقبح أو الحسن كان يضع قوانينه إضافة إلى إبراز أهميته في الكثير من التعريفات المتعلقة ببعض المصطلحات كالتخييل الذي يعرفه كالتالي: « والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه, وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها, أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض.» (الحسن، 2008م، صفحة 79). وبيّن طرق وقوعه في النفس في قوله: «وطرق وقوع التخييل في النفس: إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء من طريق الفكر وخطرات البال, أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا, أو بأن يحاكى لها الشيء بتصوير نحتي أو خطي أو ما يجرى مجرى ذلك, أو يحاكى لها صوته أو فعله أو هيأته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيأة أو بأن يحاكى لها معنى بقول يخيّله لها وهذا هو الذي نتكلم فيه نحن في هذا المنهج أو بأن يوضع لها علامة من الخط تدل على القول المخيّل أو بأن تفهم ذلك بالإشارة». (الحسن، 2008م، صفحة 79).

ويفهم من القولين السابقين أن القرطاجني (حميدة، صفحة 12) ربط بشكل واضح بين التخييل والجانب النفسي عند المتلقي، أي أن عملية التخييل هي استجابة نفسية أو إدراكية لمؤثر أو أكثر انطوت عليه الصناعة الشعرية فليس التخييل الشعري سوى عملية إيهام تقوم على مخادعة المتلقي، وتحاول أن تحرك إدراكه حتى يذعن للشعر ويستجيب لمخيلاته. ولأن المتلقي هو الذي يمنح القصيدة الشعرية وجودها وتحققها، فبدون أن تصطدم بأذنه وبدون أن ينفعل بها تظل عبارة عن حروف مكتوبة، لذا فـ« الخيال هو وسيلة الاتصال بين المبدع وقارئه ولولا التخيل* لظلت القصيدة صورا ميتة لا تجد طريقا إلى تمثلها والانفعال بها». (الخطيب)

-خاتمة:

نخلص إلى أن حازم القرطاجني قد تناول مفاهيم ومصطلحات لسانية وتوسّع فيها بشكل عميق، وبيّن مدى وعيه بها وبأهميتها كالتناسب والتخلص والتناصر والمحاكاة...الخ، وكما رأينا في ما سبق أنه اهتم بمفاهيم ومصطلحات عديدة اخترنا منها ما تيسّر علينا في هذا المقال، وقد بيّنا أن لها علاقة بالمفاهيم اللسانية النصية، وغالبا ما كان يركز على نظرته الشاملة للنص، ويلاحظ أيضا أنه اهتم بكثير من المفاهيم التي تصب في قالب واحد ألا وهو الانسجام النصي حيث بحث -كما رأينا سابقا- في طرق انسجام الفصول مع بعضها أو كما عبّر عنه بالارتباط الذي وضع له قوانين تحكمه، وهذا دليل على دقة تحليله ومحاولته الوصول باستنتاجاته إلى نتائج صائبة لا لبس فيها.

ويمكن القول إن العلماء العرب اهتموا -فعلا- بالنص، وهذا أكد لنا وعيهم بوجود مفاهيم لسانية تهتم بالنصوص، إلا أن المصطلحات التي استعملوها اختلفت عن التي تستعمل في الدراسات اللسانية الحديثة اليوم. و من أهم هذه المفاهيم تلك التي تتخذ النص أكبر وحدة للتحليل غير أنهم استعملوا مصطلحات مختلفة عن المصطلحات المتداولة في التحليل اللساني

الحديث. وهذا لا ينفي أن تراثنا العربي القديم يحمل الكثير من بوادر النظريات اللسانية والبلاغية والنق.

-قائمة المراجع:

- أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي المتنبي أبو الطيب. (1983م). ديوان المتنبي. دار بيروت للطباعة والنشر.
- حازم القرطاجني أبو الحسن. (2008م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح. محمد الحبيب ابن الخوجة، ط.03. تونس: الدار العربية للكتاب.
- خليل بن ياسر البطاشي. (2009م). الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ط.01. الأردن: دار جرير للنشر والتوزيع.
- سحر محمد فتحي عبد العليم. (2019م). مصطلحات منهاج حازم القرطاجني: دراسة بنية المفاهيم النظرية في إطار البنية الكبرى للفكر الأندلسي، تق.سليمان عبد العظيم العطار، ط.01. مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع.
- صفوت عبد الله الخطيب. (بلا تاريخ). الخيال.. مصطلحا نقديا بين حازم القرطاجني والفلاسفة. فصول مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج/07،ع03-04 ، 62.
- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي. (1991م). دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق0. د.ط.
- فاطمة عبد الله الوهيبي. (2002م). نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ط.01. الدار البيضاء-المغرب: المركز الثقافي العربي.
- محمد العبد. (2005م). النص والخطاب والاتصال، ط.01. القاهرة-مصر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.

- محمد خطابي. (2006م). لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط.01. الدار البيضاء–المغرب: المركز الثقافي العربي.
- محمد صلاح أبو حميدة. (بلا تاريخ). عناصر الشعرية عند حازم القرطاجني. تم الاسترداد من https://www.researchgate.net/publication/272492419_nasr_alshryt_nd_hazm_alqrtajny
- نجم مجيد علي مهدي. (2011م). الجهود النقدية لحازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء. مجلة كلية التربية الأساسية، ع.70 ، 19.
- نوال لخلف. (2006م). الانسجام في القرآن الكريم سورة النور أنموذجا، رسالة دكتوراه. جامعة الجزائر.

دية الحديثة.

* هو حازم بن محمد بن حسن بن خلف بن حازم الأنصاري القرطاجني، والقرطاجني (بفتح القاف وراء ساكنة وطاء مهملة فألف فجيم مفتوحة فنون) نسبة إلى قرطاجنة الأندلس، ولد (608هـ/ 1211م)كان شاعرًا وأديبًا وأشهر قصائده له القصيدة الطائية. له تآليف عديدة منها :منهاج البلغاء وسراج الأدباء في البلاغة. توفي في رمضان (684هـ/1386م). ينظر، ديوان حازم القرطاجني، د.ط، د.ت، دار الثقافة، لبنان، ص.أ–ب.

** القصدية (Intentionnalité) وهي تتضمن قصدية منتج النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالاتساق والانسجام. وهي تساعد المنتج على تحديد مقاصده أي في نشر معرفة أو بلوغ هدف معين. للتوسع في المفهوم ينظر، ر.ديبوغراند وآخرون، **مدخل إلى علم لغة النص**، ص 30–34. ور.ديبوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مرجع سابق، ص 103–105.

*** ينظر في الصفحات السابقة من المقال.

**** استعمل محمد العبد مصطلح الحبك الكلي، والحبك الجزئي، وقد استبدلناه بمصطلح الانسجام، لأنه المصطلح المتداول عندنا.

***** هناك من بيّن وجود فرق بين مصطلح تخييل وتخيل عند العلماء العرب وعند حازم نفسه، للتوسع في الفكرة يتظر، محمد صلاح أبو حميدة، عناصر الشعرية عند حازم القرطاجني والمنهاج.